

مسجد أولاد مالك بندرومة دراسة أثرية لمعلم تاريخي مجهول

أ.د. بالحاج معروف

جامعة تلمسان

مقدمة

يعدّ المسجد أول منشأة معمارية تُشيد داخل المدينة الإسلامية، وذلك اقتداء بالرسول ﷺ حين أمر بإقامة أول مبنى، وذلك مباشرة بعد هجرته إلى المدينة المنورة، ومنذ ذلك الحين ظهر المسجد كبناء مستقل تؤدّي فيه وظيفة الصلاة، وقد اتّبع المسلمون منهاج الرسول ﷺ فأقاموا في كلّ البقاع التي فتحوها مسجداً أو أكثر. وتبرز أهمية المسجد وقيّمته في حياة المسلمين، في تلك الأدوار الهامة التي يؤدّيها داخل المجتمعات الإسلامية، فبالإضافة إلى وظيفته الأساسية ألا وهي أداء فريضة الصلاة، يبدو المسجد بمثابة مؤسسة تربوية واجتماعية وسياسية وحتى اقتصادية.

1- تعريف المسجد :

المَسْجِد بكسر الجيم اسم لمكان السّجود و المسجد بفتحها جبهة الرجل، أين يصيبه السّجود و المسجد بكسر الميم الخمرة وهي الحصيد الصّغير⁽¹⁾. أمّا المَسْجِد فهو الموضع الذي يُسجد فيه.. فحسب الزركشي والزجاج، فالمسجد كلّ موضع يُتعبّد فيه لقوله ﷺ: «وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً»⁽²⁾، وهذا من خصوصيات أمة محمد ﷺ، لأنّ الأمم السابقة كانوا لا يصلّون إلّا في موضع متيقّن طهارته، كالبيوت اليهودية والكنائس المسيحية. ولما كان السّجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من خالقه، فقد اشتق اسم المَسْجِد منهُ، فقليل مَسْجِد. ولم يُقال مَرَكَع⁽²⁾.

وأما لفظ الجامع فوصف للمسجد الكبير فيذكر هشام بن عمار أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما افتتح البلدان كاتب ولأته بمصر والبصرة والكوفة يأمرهم أن يتخذوا مسجدا للجماعة، ويتخذوا أيضا للقبائل مساجد. ويتضح من هذا أن الجامع هو المسجد الذي تُقام فيه صلاة الجمعة.

وابتداء من العهد الأموي أصبح المسجد الجامع يشكل ظاهرة سياسية على جانب كبير من الأهمية، ولذا أصبح لكل أمير أو عامل من عمال الأقاليم يتخذ المسجد الجامع بمثابة المسجد الرسمي للدولة، أي قصر الحكومة بمفهومنا الحديث. وتتجلى لنا مدى أهمية رسالة المسجد السياسية أو الدور السياسي الذي يؤتيه المسجد داخل المجتمع الإسلامي، عندما نعلم أن اسم الخليفة يُذكر في خطب الجمعة لأن عدم ذكره يعني بالضرورة خلعه⁽³⁾.

2 - الإطار الجغرافي والتاريخي للمسجد:

يقع المسجد على ربوة على بعد عشرة كيلومترات تقريبا من مدينة بندرومة. ويبقى تاريخ إنشاء وتأسيس المسجد مجهولا، إلا أننا ومن خلال دراسة التصميم والعناصر المعمارية المشكّلة للمسجد سنحاول تقديم تاريخ تقريبي، والنشء المؤكّد أن بناء المسجد يعود إلى فترة ما قبل الاستعمار الفرنسي، ولربما أقدم من ذلك بكثير.

لقد تعرّض المسجد إلى تعديلات وإصلاحات، لا سيّما في عهد الاحتلال الفرنسي، حيث تمّ تغيير سقف بيت الصلاة والكتاب تماما، كما أجريت على المبنى إصلاحات حديثة.

3 - الوصف المعماري (الشكل رقم: 1):

يتربع المسجد على مساحة تقدر بحوالي 340م² ويعطي مخططا غير منتظم الشكل وتتراوح أبعاد واجهاته الخارجية بين 20 و 17 م، ويتكوّن من مسطح وبيت للصلاة وبعض الملحقات. فبيت الصلاة يتسع عرضيا أي أن العرض الذي يبلغ طوله حوالي 9,50م أكبر من العمق الذي يبلغ طوله 8,50م، ويشتمل على ثلاثة أساكيب موازية لجدار القبلة، وتأخذ البوائك في هذا المسجد

مسارا موازيا لجدار القبلة، ويستند السقف هنا على مجموعة من الدعامات ذات الأشكال المختلفة بواسطة عقود حدوية.

فتح في جدار القبلة حنية المحراب التي جاءت بسيطة في إنشائها، حيث تظهر على شكل حنية خماسية الأضلاع يعلوها عقد حدوي مدبب، وتشكل هذه الفتحة بروزا نحو الصحن، ويوجد إلى جانب المحراب فتحة أخرى تستغل بطبيعة الحال لإيواء المنبر، ويبدو أنها تعرضت هي الأخرى للتعديل.

يؤدي إلى بيت الصلاة مدخلان؛ فالأول يستغل للولوج إلى بيت الصلاة من خلال الصحن، وأما الثاني فيصل بيت الصلاة بالخارج، وهناك باب آخر يصل بيت الصلاة بالقاعة المخصصة لتحفيظ القرآن الكريم للصبيان.

وأما الصحن فذو تصميم غير منتظم الشكل يتوسطه حوض مائي يستخدم لتناول الوضوء، ويتوسط هذا الحوض بئر تستغل مياهه لسد احتياجات المصلين، وعلى يمين الصحن يقع رواق مغطى بسقف مسطح استعمل في بنائه جذوع الأشجار وأغصانها، ويطل على الصحن بواسطة بائكة تضم ثلاثة عقود نصف دائرية، وعلى اليسار من الصحن قاعة مستطيلة الشكل (الشكل رقم 1) مغطاة بسقف مسطح يدخل في بنائه جذوع الأشجار، ونجهل الوظيفة التي كانت تؤديها هذه القاعة.

وأما القاعة المحاذية لبيت الصلاة (الشكل رقم 1) فهي الأخرى مستطيلة الشكل تقريبا وتستغل لتدريس القرآن الكريم وتحفيظه للصغار، ولها بابان؛ واحد يؤدي مباشرة إلى خارج المسجد، والآخر فيؤدي إلى بيت الصلاة.

4 - التحليل والمقارنة:

سنحاول هنا مقارنة مسجد أولاد مالك مع المساجد الأخرى التي تنتمي إلى نمطها المعماري، كما سنتعرض إلى عناصره المعمارية للتعرف على جذورها التاريخية.

أ - من ناحية التصميم :

انطلاقاً من أنّ بيت الصلاة ينقسم إلى أساكيب بواسطة مجموعة من الدعامات (الشكل رقم:1)، يمكن القول أنّ تصميم مسجد أولاد مالك يدخل ضمن طراز المساجد ذات الأعمدة والدعامات، وينتمي إلى نمط الجامع الأموي بدمشق⁽⁴⁾ من حيث اتساعه عرضياً ومن حيث مسار البوائك داخل بيت الصلاة إذ تأخذ اتجاه موازياً لجدار القبلة، كما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنمط الجامع الأموي بدمشق حتّى من حيث عدد الأساكيب التي لا يتعدّى عددها الثلاثة في كلا المسجدين.

وأما في بلاد المغرب الإسلامي فقد لاحظنا أنّ مسجد أولاد مالك ينتمي إلى نفس نمط مسجدي الخميس (الشكل رقم:3)، وبني عشير (الشكل رقم:2) الواقعين في منطقة بني سنوس، وعليه يمكن التأكيد على أنّ هذه المساجد تنتمي إلى نفس الفترة، لكن حتّى تاريخ تأسيس مسجدي الخميس وبني عشير ما زال مجهولاً.

ب - العناصر المعمارية:

المحراب: عبارة عن فتحة ذات مخطّط خماسي الأضلاع بسيطة في بنائها، ولا يكتنفها عمودان كما جرت العادة في المساجد الأخرى، ولكن تقترب من المحاريب المرابطية والموحدية⁽⁵⁾ من حيث المخطّط فقط.

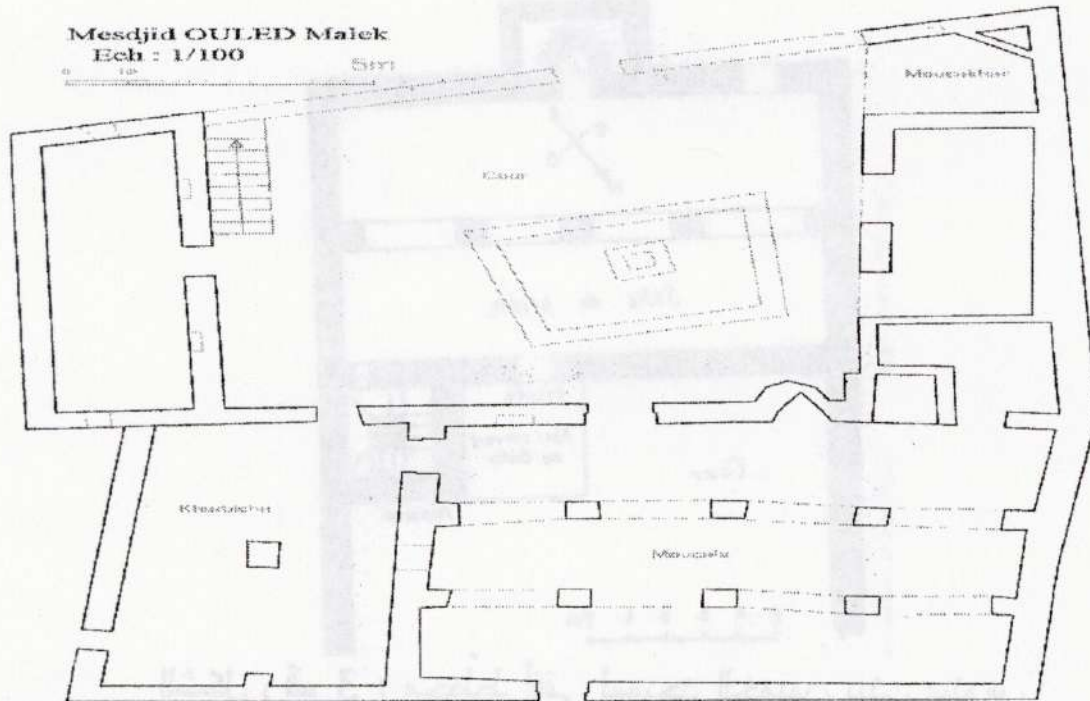
العقد: عنصر معماري له وزنه وأهميته في العمارة الدينية الإسلامية، وتتمثّل وظيفته في توزيع ثقل السقف والضغط الذي يعلوه على الركائز والجدران، ليصبح فضاء خصباً لإبداعات الفنان المسلم في مجال الزخرفة.

وقد جاءت كلّ عقود مسجد أولاد مالك ولا سيّما داخل بيت الصلاة على شكل حدوة الفرس وتمتاز العقود الحدية بقوة مقاومتها ضدّ اندفاع القوى الناشئة من انحنائها، بحيث تفوق قوة مقاومة العقد النصف الدائري، وأنّ هذه القوة لا تندفع خارج حدود العقد وتساعد على تماسكه⁽⁶⁾.

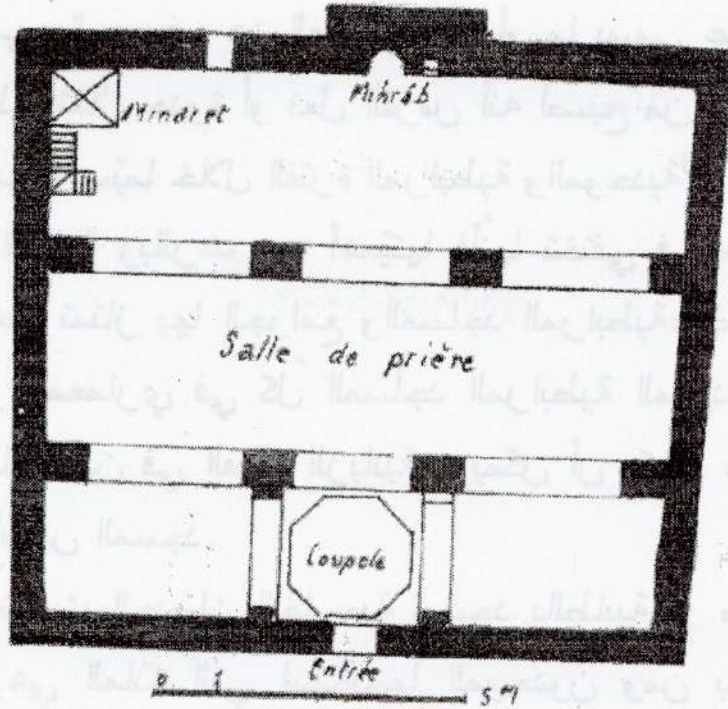
والشيء المعروف عن العقد الحديوي أو ما يسمى عند بعض مؤرخي الفن بعقد على شكل حدوة أو نعل الفرس أنه أصبح من اختصاص الأندلس وبلاد المغرب لا سيما خلال الفترة المرابطية والموحدية⁽⁷⁾.

إن المئذنة وبالرغم من أهميتها فإنها تختفي في مسجد أولاد مالك وهذه الخاصية تمتاز بها الجوامع والمساجد المرابطية، حيث نلاحظ غياب هذا العنصر المعماري في كل المساجد المرابطية المشيدة في الجزائر إذ أضيفت إليها المآذن في الفترة الزيانية، ويمكن أن يكون هذا مؤشرا يقربنا من تاريخ تأسيس المسجد.

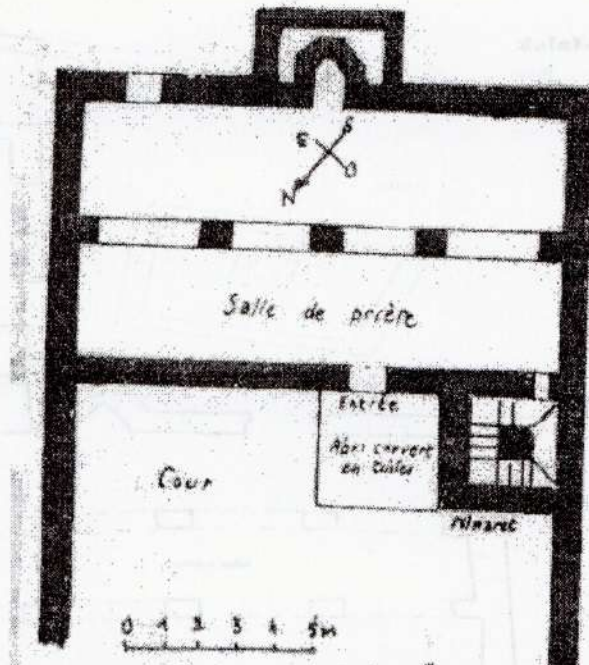
لقد شيدت الجدران الخارجية لمسجد بالطابية أو ما يسمى بالتراب المدكوك، وهي المادة التي استخدمها الموحدون ومن بعدهم الزيانيون والمرينيون بشكل واسع، ومن هنا يرجح أن يكون تأسيس مسجد أولاد مالك قد تم في الفترة الممتدة بين القرنين الخامس والسابع الهجريين.



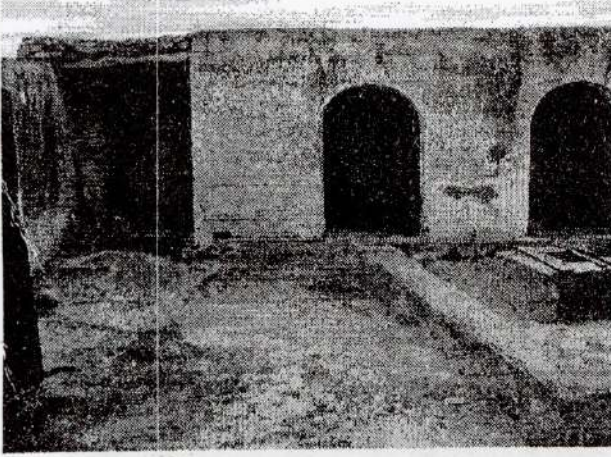
الشكل رقم 1: مخطط أفقي لمسجد أولاد مالك



الشكل رقم 2 : مخطط أفقي لمسجد بني عشير ببني سنوس
عن / Rachid Bourouiba : Apport, p :46

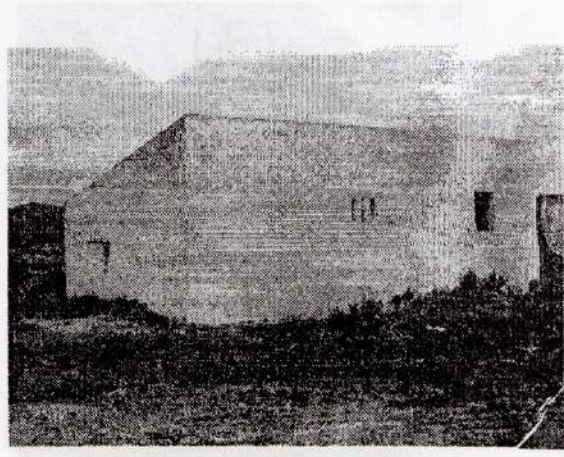


الشكل رقم 3 : مخطط أفقي لمسجد الخميس ببني سنوس
عن / Rachid Bourouiba : Apport, p :46



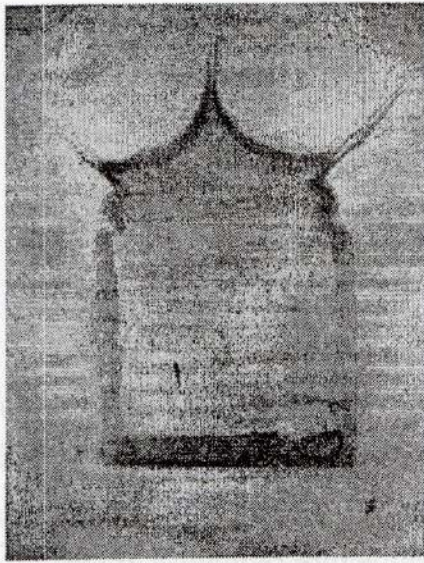
اللوحة رقم: 2

منظر لصحن مسجد أولاد مالك



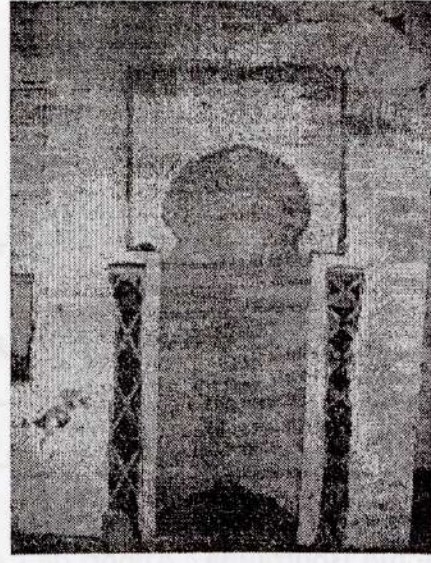
اللوحة رقم: 1

منظر خارجي لمسجد أولاد مالك



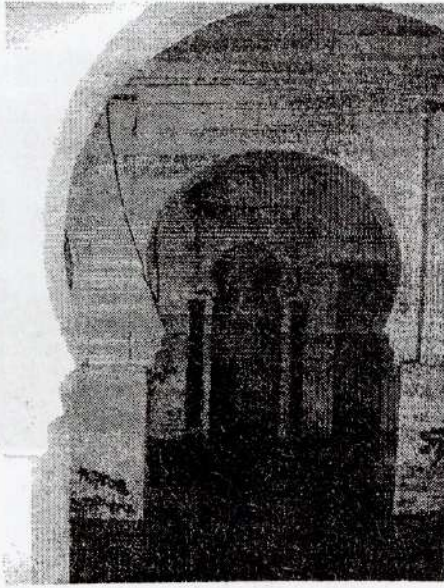
اللوحة رقم: 4

صورة للكوّة داخل بيت الصلاة



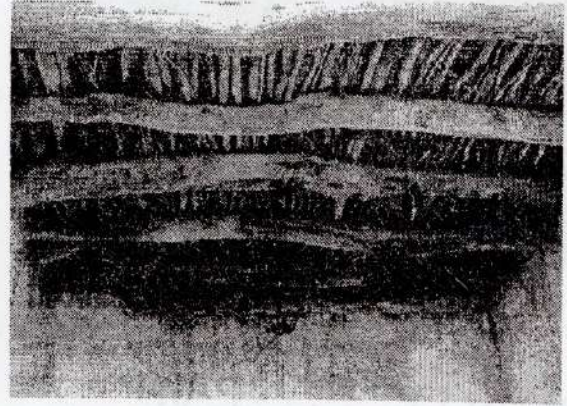
اللوحة رقم: 3

صورة لمحراب مسجد أولاد مالك



اللوحة رقم 6:

صورة لمحراب مسجد
أولاد مالك



اللوحة رقم 5:

صورة لسقف القاعة المفتوحة
نحو الصحن والأروقة

الهوامش

- (1) ابن منظور: المصدر السابق، ج: 3، ص: 201 - 202 .
- (2) سعاد ماهر: مساجد من السيرة النبوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1987، ص: 13، 14.
- (3) المرجع نفسه، ص: 14 .
- (4) شيد الجامع الأموي بدمشق بأمر من الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بن مروان (86-96 هـ/706-714 م)، ويتألف الجامع من صحن وبيت للصلاة تعلوه قبة أمام المحراب، وتبلغ مساحته 157 × 97م²، إذ يتسع عرضيا، ينظر محمد سامح كمال الدين، العمارة في صدر الإسلام، ط: 1، دار مهضة الشرق، القاهرة 2000، ص: 27-31.
- (5) - Rachid Bourouiba: Apport de l'Algérie à l'architecture religieuse arabo-islamique, O.P.U, Alger 1987, p: 152-153.
- (6) أحمد فكري: المسجد الجامع بالقيروان، مطبعة المعارف القاهرة 1936، ص: 74 .
- (7) - Laibi Shaker: Soufisme et l'Art Visuel Iconographie du Sacré, l'Harmattan, Paris 1998, p: 89 .